- ٤ -

المدينة فى أروع أيامها

شهدت المدينة أروع أيامها بهجرة محمد ﷺ إليها، وتحولت إلى منطقة جذب للذين ينشدون الحقيقة.. وقوة جديدة تستمد عظمتها من كتاب الله، ومن سنة رسوله الذى يتنزل عليه جبريل عليه السلام.. وأصبحت المدينة تحت قيادة أعظم من عرفته الحياة.. قيادة بالغة القوة والعزم والإرادة.. يعززها أن صاحبها نبى يوحى إليه ولا ينطق عن الهوى.. وإذا كان الناس فى هذا المجتمع الجديد فى حاجة إلى قانون يحدد العلاقات بين الأفراد والأفراد، وبين الناس والناس، فإن هذا القانون كان أعظم قانون عرفه الوجود.. لأنه ليس من وضع بشر. ولكنه تنزيل من عزيز حكيم.. نور يضىء ظلمات الوجود.. وحياة جديدة متفتحة إلى واقع جديد.. وكان لابد لقافلة النور أن تشق طريقها.. وأن تعم أنوار الرسالة كل الأرجاء.. ولن يقف فى سبيلها يهود المدينة.. برغم أن النبى قد عاهدهم، ألا يعتدوا على المسلمين وألا يعتدى المسلمون عليهم، وألا يحالفوا أعداءه، ولهم حرية الاعتقاد والأمان على أرواحهم وأموالهم.. وكان بينه وبينهم كتاب.

وكذلك ما كان يمكن أن يعوق الدعوة المنافقون وعلى رأسهم عبدالله بن أبى سلول، الذى كان قاب قوسين أو أدنى من أن يتوج ملكا على يثرب.. ولكنه أنزوى فى الظل عندما قدم إلى المدينة النبى العظيم.. بكل ما له من مهابة وجلال فى النفوس..

.. إن النبى من موقعه الجديد يعد لانطلاقة ضخمة.. لأن الإسلام جاء للناس كافة على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وألوانهم..

وكان اليهود وهم قبائل بنى قريظة وبنى النضير، وبنى قينقاع.. يعرفون أن دعوة الإسلام سوف تشق طريقها.. وأن محمدا ﷺ سيظهرها ما فى ذلك شك.. وكانوا يعلمون أنه سوف يكشف كل ما يعتمل فى صدورهم من أحلام وطموحات وأحقاد.. ولكن حقدهم كان يأكل صدورهم. إنه نبى يأتى من العرب.. من أمه أخرى غير بنى إسرائيل.. والقرآن يكشف زيف اعتقاداتهم التى حرفوها.. فلم يقل أحد من الأنبياء السابقين، ما قاله اليهود أو النصارى عنهم..

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [**البقرة**: ١٤٠].

وإذا كان النبى قد وضح منهج العقيدة، بالإيمان بوحدانية الله سبحانه وتعالى، والاعتراف بأنبيائه ورسله وملائكته واليوم الآخر.. فقد وضح لهم أيضا أن تكون سمة المجتمع الإسلامى الاستقرار، والاستقرار أساسه العدل والإحسان والبعد عن المعاصى، ما ظهر منها وما بطن، وأن يظلل المجتمع ويربط لبناته الطاعة لله والرسول وأولى الأمر..

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

.. الأمر إذن ليس فوضى.. ليس أن يتصرف كل إنسان كما يريد أو يتمنى.. ولكن على الإنسان المسلم أن يعيش فى هذا المجتمع.. محققا ما يأمره به الشرع الحنيف، والرسول بينهم يشرح ما غمض عنهم من أحكام.. فإذا ظهر اختلاف فى أمر من الأمور، فالمرجع هو كتاب الله وسنة ورسوله.

.. وقد جمعت الآية الكريمة واجبات الإنسان المسلم فى كلمات موجزة ومعجزة لأنها رغم إيجازها الشديد، دستور حياة راقية.. بل بالغة الرقى..

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [**النحل**: ٩٠].

.. كلمات قليلة موجزة.. ومع إيجازها المعجز فهى قادرة على بناء أعظم المجتمعات.. وقد أقامت بالفعل أعظم المجتمعات على يد الرسول العظيم، وعلى يد خلفائه.. فعندما يسود العدل، وعندما تملأ الرحمة القلوب بذوى القربى.. وعندما يكون شعار المجتمع العدل والإحسان، والبعد عن كل ما يهبط بآدمية الإنسان والتمسك بالبعد عن كل فحش ومنكر.. فكل هذا جدير بأن يصنع أعظم المجتمعات، مجتمعات واقعية، لا مجتمعات وهمية كتلك التى تصورها الفلاسفة فى مختلف العصور ولم تتحقق هذه المدن الفاضلة.. أو هذه المجتمعات المثالية التى يحلمون بها، لأن مبادئها قامت على زيف من التصورات والخيال الذى يستحيل تحقيقها فى دنيا الواقع..ويبلغ عظمة التشريع الإسلامى الذروة وهو يحث على العدل.. ليس مع الآخرين فقط.. ولكن مع نفسك أولا.. فإذا لم تكن هناك مسافة بينك وبين نفسك.. وظاهرك وباطنك.. وما تؤمن به هو دستور حياة، وليس مجرد كلمات تقال، أو شعارات لها رنين أجوف.. تتسق الجهود.. ولا تتسع الهوة بينك وبين نفسك، ولا بينك وبين الناس.. ويختفى من حياتك ومن حياة المجتمع ما نقول عنه بلغة علم النفس (العقد النفسية) وتتلاشى من قاموس الحياة.. لأن الإسلام يضع لك هذه القاعدة الذهبية..

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ﴾ [النساء: ١٣٥].

لا تعصب قبلى.. ولا تحجر عند أفكار عقيمة.. ولا لف ولا دوران حول قيم ومعتقدات جاهلية بالية.. ولا تعصب للقبيلة والعشيرة.. ولكن أساس العلاقات بين الناس هو العدل.. إنه الخيط الذى يربط جميع العلاقات الإنسانية بخيط قوى لا يبلى.. فالأمر الإلهى هو:

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨].

لقد وضع النبى عليه الصلاة والسلام أسس قيام الدولة بمجرد دخوله يثرب.. ووحد صفوف المسلمين وآخى بين أنصارهم ومهاجريهم، ولم يكن هناك بد من سرعة الحركة.. وقد شرع الجهاد فى نفس العام.. وهذا يعنى انه انتهى عصر تحمل سخافات أعداء الإسلام.. بل لابد أن تردع القوة بالقوة..

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

ولم يكن فرض الجهاد يعنى إرغام أحد على الدخول بالإسلام بحد السيف.. فهذا ما لا يقره الشرع، ولا السنة، ولكنه كان دفاعا عن الحق الإسلامى ضد باطل الشرك وجبروته.. فالإسلام قام على الإقناع.. ومن يؤمن فإنما يؤمن لنفسه، ومن ضل فلنفسه أيضا..

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ١٠٨].

.. فالجهاد كان لإعزاز الدين، وليس اعتداءً على أحد.. ومن هنا فقد ورد عن النبى العظيم قوله:

- «والذى نفس محمد بيده، لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل».

وقد ورد قوله أيضا عليه الصلاة والسلام:

- «من مات ولم يُغز ولم يحدث نفسه بغزو، مات على شعبة من النفاق».

فالأحاديث توضح قيمة الجهاد، وهو كما قلنا دفاع عن النفس، وحفاظ على عزة المسلمين.. وقد كان الإذن بالجهاد بداية لنشاط عسكرى بالغ الخطورة، غير مسار التاريخ الإنسانى كله..

فقد بلغت غزوات الرسول تسع عشرة غزوة، وقيل احدى وعشرين غزوة.

وقال أبو إسحاق: كنت إلى جنب زيد بن أرقم؛ فقيل له: كم غزا النبى ﷺ من غزوة.. قال: سبع عشرة، قلت: فأيهم كانت أول؟ قال: العشيرة، أو العشير، فذكرت لقتادة فقال العشيرة.

وروى عن جابر أن عددها احدى وعشرون ففات زيد بن أرقم ذكر سنتين ولعلها الايواء وبواط. وبواط جبل قرب نبع، وقد كان النبى قد تأهب لملاقاة مكة.. عندما بلغه أن عيراً لها سوف تمر، وكان فيها أمية بن خلف ومائة من قريش وقد ذهب على رأس جماعة من المسلمين سعد بن أبى وقاص، ولكن القافلة أفلتت.. أما غزوة العشيرة.. وكانت فى شهر جمادى الأولى. فقد كان النبى ﷺ يريد أن يتصدى لقافلة قريش التى يقودها أبوسفيان.. وقد وصل النبى حتى العشيرة ولكن أبا سفيان كان قد أفلت بالعير ومعه ما معه من أموال قريش فى طريقها إلى الشام.. ولكن كانت غزوة بدر أخطر هذه الغزوات.. لأنها كانت بداية لتغيير ميزان القوى لصالح المسلمين..

حياة جديدة فى المدينة

وعاش الناس فى مجتمع المدينة حياة جديدة.. فقد آخى النبى ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وهذا الإخاء جعل الأخوة بين المسلمين هى أخوة الإسلام وآداب الدين الجديد أذاب ما كان بين الأوس والخزرج من عداوات ومشاحنات قديمة.. ووضع ما كان بينهم من بغضاء..

كانت الصورة ناصعة البياض فى المجتمع الجديد، ولم يكن هناك ناقم على قدوم النبى، سوى اليهود الذين كانوا يتخوفون من مجىء النبى فهم يعلمون تماما أن هجرة النبى إلى المدينة بداية وليست نهاية.. بداية حركة الإسلام، وعدم انطوائه على نفسه، وإن الإسلام سوف يجابه كل القوى ليحقق هدفه وينشر رسالته.. كان اليهود إذن على يقين من أن دعوة النبى ستحقق لهم الكثير من المتاعب، ولكنهم خشوا أن يجابهوا النبى لأول

وهلة.. لقد آثروا السلامة من ناحية، وآثروا الصمت حتى تتمخض الأيام عما يأتى من أحداث.. كان اليهود ثلاث قبائل.. اثنتان منها لعجلان يعملان فى الزراعة بينما تعمل الأخرى فى صياغة الذهب والفضة وصنع الأسلحة..

وكان هناك أيضا عبد الله بن أبى بن سلول.. كان من أقوى رجالات المدينة، وكان يهيئ نفسه لأن يضع على رأسه تاج الملك، ويصبح ملكا على الأوس والخزرج.. فقد كان ذكيا.. بالغ الذكاء.. وكان فى نفس الوقت سياسياً، وكان عبد الله بن أبى من الخزرج، ولكن لسياسته وحيلته وتطلعاته إلى أن يحكم المدينة، ويضع على رأسه تاج الملك، رفض أن يكون طرفا فى النزاع مع الأوس.. بل كان يحاول دائما أن يوقف القتال بينهما كلما نشب بينهما قتال، وكان الهدف من وراء ذلك هو أن تقبله الأوس ملكا عليها..

فهو لم يخض حربا ضدها، ولا حرض عليها.. ومن هنا فقد كان تتويجه ملكا أمرا محتم الوقوع.. وجاء النبى ﷺ، بما له من مكانة وشخصية وجلال، وما له من نفوذ على اتباعه.. فتبددت أحلام ابن أبى، وغربت شمس طموحاته.. فلم يعد هو الشخصية المشار إليها بالبنان فى مجتمع المدينة.. بل غدا شخصية تتضاءل كل التضاؤل أمام عظمة الرسول وشخصيته.. ولحصافة الرجل وسعة حيلته أثر أن يكيف نفسه مع الأحداث، فليس بمقدوره أن يجابه هذا التيار الجارف المتمثل فى العقيدة الإسلامية، ولا كان بإمكانه أن يعلن عداوته للنبى الكريم، فأعلن إسلامه، بينما كان صدره يمتلىء حقدا، فكان رأس المنافقين فى المدينة.

وكان على المهاجرين أن يعملوا.. وإذا كانت حرفتهم الرئيسية هى التجارة، بينما حرفة أهل المدينة هى الزراعة، فقد عملوا فى التجارة وحاول بعضهم العمل فى الزراعة.. واشترى الصديق بالأموال التى حملها معه من مكة بستانا فى وسط الواحة من النخيل.. وبدأ المجتمع الجديد تتضح

معالمه.. إنهم يؤثرون إخوانهم على أنفسهم، تجمعهم الصلوات الخمس فى مسجد الرسول.. وفى المسجد التقوا بآخر النبيين.. وتعلموا منه قيم الإسلام ومبادئه.. الصلاة تسمو بأرواحهم.. وتعلمهم النظام والنظافة، وأن يكون الجميع فى صف واحد لا فرق بين غنى وفقير. ويسمعون من النبى القرآن الكريم، الذى رسم لهم طريق حياتهم. ومنهاج معيشتهم، ويسمعون من النبى الكريم الأحاديث التى تشرح لهم.. وتفسر ما نزل من تشريعات الله.. مجتمع جديد تدب فيه حياة جديدة.. وتمتلىء الحياة بالعلم الذى نزلت به آيات القرآن الكريم.. فهناك من يدون القرآن الكريم، وهناك من يدون ما ينطق به الرسول الكريم من أحاديث.. فليس صحيحاً أن الحديث لم يدون إلا فى عهد عمر بن عبد العزيز.. فعمر رضى الله عنه، قد أمر أن يجمع ما دون من أحاديث الرسول، حتى لا يضيع هذا التراث الضخم.. أما الحديث فى زمن النبى، فقد كان هناك من يكتبه من أصحاب الرسول الكريم ﷺ.

هداية الناس بالقرآن

صحيح أن النبى فى العهد المكى قد نهى عن تدوين الحديث، حتى لا يخلط الناس بينه وبين القرآن.. فالقرآن ببيانه المعجز.. وقوة أسلوبه.. وفصاحة بيانه وتصويره لحقائق الغيب، كان كافيا ليصل إلى القلوب.. ورغم أن هناك فرقا كبيرا بين أسلوب القرآن.. كلام الله.. وبين أسلوب النبى البشرى.. فإن النبى ﷺ زيادة فى الحرص على أن تصل آيات القرآن إلى أعمق أعماق النفوس، قد آثر أن يكون التركيز كله على القرآن.. وأن تكون هداية الناس بالقرآن.. وكانت سيرته وسلوكه عليه الصلاة والسلام هما تجسيد لما جاء فى القرآن الكريم..

والقرآن الذى نزل فى العهد المكى، وهو يتحدث عن الله ووحدانيته وعن عالم الغيب وما أعده الله للمؤمنين من نعيم، وللكافرين من عذاب أليم.. وكان كلاما واضحا ليس فى حاجة إلى تفسير..

ولكن الصورة تغيرت عندما هاجر النبى إلى المدينة، هناك تشريعات سماوية نزلت وفى حاجة إلى تفسير وإلى توضيح.. فالتشريعات بمختلف ألوانها.. والتشريعات التى تحكم الفرد، وعلاقته بالمجتمع، وعلاقته بأسرته.. وعلاقة المجتمع بالنسبة له.. وتنظيم معاملات الناس فى مختلف شئون حياتهم من زواج.. وطلاق.. ومعاملات عامة وخاصة.. وما نزل بشأن العبادات التى شرعها الله.. والحدود وغيرها.. كل ذلك كان فى حاجة إلى تفسير وإلى شرح وإلى بيان.. والذى يقوم بكل هذا هو صاحب الرسالة نفسه عليه الصلاة والسلام.. وهذا يتم عن طريق السُّنَّة.. فكان لابد من تدوين أحاديث الرسول المتعلقة بكل هذه الأمور.. فأباح النبى السُّنَّة فى المدينة بعد أن كان قد نهى عنها فى مكة. والبخارى يروى عن أبى هريرة قوله:

- «ما من أحد أكثر حديثا عنه منى إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فانه كان يكتب ولا أكتب».

وكان عبد الله بن عمرو يكتب كل ما كان من رسول الله ﷺ.. وقد قال:

- «كنت أكتب كل شىء اسمعه من رسول الله ﷺ.. ورسول الله ﷺ بشر، يتكلم فى الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتابة، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأوما بأصبعه إلى فيه وقال: أكتب فو الذى نفسى بيده ما خرج منه إلا الحق..».

وتغيرت صورة الحياة فى المدينة.. وهبت عليها نسائم الإيمان واتحدت الأوس والخزرج، وأصبحوا أخوة للمهاجرين من مكة.. وابتدأ الإسلام يغزو بسرعة فائقة قلوب من لم يسلم من أهل يثرب.. وأصبح للمسلمين مكانة رفيعة فى المدينة.. وهم يقيمون الصلاة.. وهم يستمعون للنبى الكريم.. والنبى نفسه كواحد منهم.. يمشى بين الناس.. ويحل مشاكل المجتمع

الجديد.. ورسم الإيمان على وجوه المؤمن إشراقة الإيمان.. ويمضى عام فى مكة ويفرض صوم رمضان عندما نزل قوله تعالى:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وكان النبى عليه الصلاة والسلام يعتكف فى العشر الأواخر من رمضان.. واعتكف عشرين يوما فى العام الذى انتقل فيه إلى الرفيق الأعلى كما يقول أبو هريرة رضى الله عنه.

غزوة بدر وانطلاق الدعوة

وتمضى الأيام فى المدينة.. والحياة فيها قد أخذت طابعا جديدا.. النور يغمر المدينة.. والناس فيها من المهاجرين والأنصار قد آخى بينهم الإسلام وجمعهم على المحبة والإيثار وحب الخير.. والدولة الإسلامية الوليدة تنمو نموا رائعا.. واليهود فى المدينة متخوفون من تطور الأحداث، وكفار قريش يحسبون للمسلمين ألف حساب..

وما كان يمكن للأمور أن تسير هادئة.. فقد آن الأوان للحركة السريعة فقد أذن الله للمؤمنين بالجهاد.. ورد الله كيد اليهود فى نحورهم.. فطالما حاولوا إحراج النبى.. وهم يسألونه عن الروح، وعن الساعة وعن صفات الله، وبلغت بهم وقاحتهم أن يسألوه أن يصف لهم الله. ويجسده لهم!!

ولكن الوحى كان ينزل إلى النبى الكريم.. موضحا وشارحا ما غمض عليه.. ولكنهم عندما بلغوا قمة السفاهة بأن طالبوا النبى أن يصف الله لهم وصفا مجسدا.. والله ليس كمثله شىء.. نزل قوله تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

إن الإسلام ترتفع راياته.. وكل يوم يزداد قوة وصلابة.. ويأتى الإذن بالجهاد:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

وقد كانت سعادة المؤمنين غامرة، وهم يسمعون من نبيهم السماح لهم بالجهاد، ورد كيد المعتدين.. فما أكثر ما ذاقوا من العذاب على يد كفار قريش، وما كانوا يقاومون ظلم الظالمين، ولا يردون كيد الكائدين..

.. لقد سلبوهم كل شيء.. وطردوهم من ديارهم.. وأن لهم أن يحققوا وعد الله..

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

لقد مضى على المسلمين فى المدينة قرابة عام ونصف.. وها هم يسمعون أن قافلة كبيرة لمكة فى طريقها إلى الشام بقيادة أبى سفيان بن حرب.. وصمم المسلمون على التعرض لهذه القافلة.. وتسللت القافلة نحو الشام.. وقرر المسلمون التصدى لها عن طريق العودة.. ويعلم أبو سفيان،.. ويرسل لمكة رجلا من غفار اسمه (ضمضم) ليخبرهم بما سوف تتعرض له القافلة من المسلمين.. واجتمعت قريش فى دار الندوة.. وقد أخذهم الحماس البالغ.. ورغبة جارفة فى إنقاذ العير القادمة من الشام.. وأن عليهم إعطاء النبى درسا حتى لا يعود إلى موقف كهذا الذى وقفه.. وما كانوا يدرون إنهم يسارعون إلى حتوفهم.. وإن الله متم نوره، ولوكره الكافرون.

وبرغم أن أبا سفيان استطاع أن يتخذ طريقا آخر غير مألوفة، وينجو بالقافلة.. ويعود بها سالمة إلى مكة، إلا أن الغرور، والشعور بالقوة

والزهو.. دفع قريشا إلى ضرورة محاربة النبى.. وصممت على ذلك.. وجمعت لذلك جيشا وعتادا.. وعلم النبى ﷺ بعزم قريش على محاربته.. ولما كانت بيعة العقبة بينه وبين أهل يثرب أن ينصروه ما دام بينهم، فان الموقف اليوم مختلف.. انه فى مكان بعيد عن مكة.. عند بدر.

وهكذا وضح أن المسلمين.. الأنصار منهم والمهاجرين، قد عزموا على الجهاد فى سبيل الله مع الرسول الكريم.. وانهم مقبلون على معركة فاصلة فى تاريخ الإسلام.. فهى من أخطر المعارك وأهمها، لأنها ستكون فاصلا بين عهدين.. وبين حياتين.. ولو هزم الإسلام فسينتهى إلى الأبد، وإذا انتصر فمعنى هذا انطلاق بلا حدود نحو الغد المشرق المأمول.. قال النبى عليه الصلاة والسلام للمسلمين.

- سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين: العير أو النفير، فوالله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم..

.. إن الرسول العظيم هنا يبشر المؤمنين بالنصر.. وما كان النبى الذى لا ينطق عن الهوى أن يقول ما قاله إلا لثقته من نصر الله..

لقد خرج الكافرون صوب المدينة لملاقاة النبى، ولم يستمعوا لأى صوت طلب منهم البقاء فى مكة، ما دامت العير رجعت سالمة إليهم، ولكن الشيطان أضلهم ووسوس فى صدورهم، وحضهم على الخروج لملاقاة المسلمين.. بل أن أبا جهل قال بكل صلف الجاهلية والكبر:

- والله لا نرجع حتى نرد بدرا، فنقيم عليها ثلاثا، ننحر الجزر ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدا..

ولم يكن رأس الكفر فى مكة يدرى انه سيذهب إلى بدر ولن يعود.. وأنه سوف يقتل حيث يلاقى عذاب من كفر به، وألب على رسوله السفهاء والحمقى، وذوى النفوس المريضة، والقلوب المتحجرة..

كان المسلمون ثلاثمائة رجل وبضعة عشر رجلا.

وكان المشركون تسعمائة وخمسين رجلا ومعهم مائة فرس وسبعمائة بعير. ويقترب رجل مؤمن من الرسول هو الحباب بن المنذر يسأله:

- يا رسول الله أرأيت هذا المنزل الذى نزلته، أهو منزل أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟

أجابه النبى ﷺ: بل هو الرأى والحرب والمكيدة.

فقال الحباب: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم (المشركين).. ثم نغور ما وراءه من القلب (أى يجمع الماء فى مكان واحد) ثم نبنى عليه حوضا فنملأه بالماء ثم نقاتل القوم (والماء من ورائنا) فنشرب ولا يشربون..

واستحسن النبى رأى الحباب ووافق عليه.

واقترح سعد بن معاذ بناء عريش للنبى عليه الصلاة والسلام.

واستحسن النبى هذا الرأى ووافق عليه، ليدير المعركة منه..

وكان لابد أن يبدأ القتال، وقد اقترب الجيشان، وخاصة بعد أن قتل حمزة بن عبد المطلب الأسود بن عبد الأسد المخزومى عندما أراد أن يهدم حوض الماء الذى أقامه المسلمون.. وكعادة العرب فى حروبهم خرج ثلاثة من مشركى مكة للمبارزة هم: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة بن ربيعة.

وخرج لهم حسب نداء النبى: حمزة بن عبد المطلب، وعلى بن أبى طالب، وعبيدة بن الحارث.. واستطاع المسلمون القضاء على مشركى مكة الثلاثة..

و.. بدأت معركة بالغة الضراوة.. بين جيش المسلمين فى قلة عدده وعتاده، وقوات تفوقه عددا وعتادا.. وشهد هذا اليوم الخالد فى التاريخ يوم

السابع عشر من رمضان من السنة الثانية من الهجرة أعظم المعارك التاريخية التى غيرت مسار التاريخ الإنسانى كله.. لقد وقف الرسول العظيم فى العريش، وهو رافع يديه إلى السماء، يسأل الله نصره:

- «اللهم هذه قريش، قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك. اللهم فنصرك الذى وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد فى الأرض..».

ويندمج النبى بكل كيانه فى الدعاء لله، حتى سقط رداء النبى من فوق كتفيه وأبو بكر يرى النبى ﷺ يلتمس النصر من الله بكل خلجات نفسه والمعركة على أشدها.. فيقول الصديق لخاتم الأنبياء: يارسول الله، بعض مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك..

وقال النبى الكريم وقد استيقن من نصر الله:

- والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة..

ويأخذ النبى حفنة من تراب يرميها على أعداء الله وهو يقول: صائحا فيهم:

- شاهت الوجوه..

وتبدأ المعركة.. قاسية رهيبة.. نسى المسلمون فيها أنفسهم.. لم يتذكروا سوى شيء واحد.. النصر أو الشهادة.. وبدت من بين صفوف المسلمين عمالقة الجهاد.. شجاعة منقطعة النظير من أناس يفضلون الموت على الحياة.. وعلى الساحة كان هناك حمزة بن عبد المطلب يضرب بسيفه يمينا وشمالا.. تتساقط أمام ضرباته الرقاب.. وكان ابن أخيه على بن أبى طالب فى شبابه وشجاعته لا يقاومه مقاوم.. تتخاذل سيوف الأعداء أمام ضرباته الجسور، وكان هناك الزبير بين العوام يخوض معركته لا يخشى شيئا وإنما يريد الشهادة.. فإذا بسيفه يحصد أعداء الله.

ولم يعد أمام المسلمين سوى التأكد من نصر الله.. لا يرهبهم كثرة أعدائهم، ولا صلة الدم بينهم وبين المشركين الذين جاءوا يطفئون نور الله، ويقتلون نبيه، فإذا بأبى عبيدة بن الجراح.. ذلك الفارس الذى شهدته معارك المسلمين والرومان فيما بعد بطلا من أعظم عمالقة التاريخ. يحاول أن يهرب من مقاتلة والده، وينشغل بقتال الآخرين. ويأبى والده ألا أن يقاتله، فلا يجد مفرا من قتال أبيه وقتله..

ووجد أبو جهل.. عدو الله وعدو رسوله أن الميزان قد انقلب لصالح المسلمين.. وأن معركة قريش معركة خاسرة.. فحاول أن يختفى وينجو بنفسه، وهو الذى طالما عذب المسلمين، وسامهم سوء العذاب.

.. ويتقدم إليه فتى صغير من فتيان المدينة وهو معاذ بن عمرو فيضربه بسيفه، فيطير نصف ساقه.. ويأتى ابنه عكرمة يحاول إنقاذ أبيه ويأخذ فى محاربة الفتى الصغير، فإذا بفتى آخر من الأنصار يرى عدو الله، فيطعنه بالرمح، فيسقط غارقا فى دمائه.. يحاول أن يخفى وجهه حتى لا يجهز عليه أحد من المسلمين ويراه عبد الله بن مسعود.. فيضع قدمه على عنقه.. فابن مسعود راعى الغنم الفقير فى مكة.. والذى ملأ الله قلبه بنور الإسلام لم ينس مواقف أبى جهل من المسلمين فى مكة.. فإذا به يضغط على عنق عدو الله.. وينظر إليه أبو جهل، وينتابه حزن عميق.. إن نهايته على يد هذا الرجل الذى طالما كان يسخر منه فى مكة ويستهين به وينزل به ألوانا من العذاب.. ولكنه حتى فى هذه اللحظات لا ينسى عدو الله صلفه وكبرياءه فيقول لابن مسعود.

- لقد ارتقيت مرتقى وعرا يا رويعى الغنم.

فيرد عليه ابن مسعود:

- انظر يا عدو الله ما يصنع بك راعى الغنم..

وظل ابن مسعود يضغط على رقبة أبى جهل حتى فارق الحياة..

وانطلق ابن مسعود يبشر النبى بمقتل أبى جهل، ويسر الرسول ويذهب حيث يرى عدو الله راقدا جثة هامدة، وهو الذى طالما ملأ أجواء مكة حقدا على النبى ورسالته.. فقال النبى الكريم:

- الحمد لله الذى أخزاك يا عدو الله!.

وقال عنه: اليوم هلك فرعون هذه الأمة.

وفى هذه المعركة أيضا قتل أمية بن خلف على يد بلال بن رباح الذى ذاق منه أمر العذاب.. على رمال مكة.. وهو ينادى فى عذابه: أحد.. أحد.. أحد.. أحد.. حتى أنقذه الصديق بشرائه وعتق رقبته..

.. مشهد لم يعرف له التاريخ مثيلا.. قلة مؤمنة صابرة تنتصر على كثرة ظالمة.. فقد انتهت المعركة.. وولى المشركون الأدبار.. تاركين سبعين أسيرا.. وسبعين قتيلا..

ويأمر النبى ﷺ بدفن شهداء المسلمين..

ويأمر أيضا بدفن المشركين..

ومكث النبى فى بدر ثلاثة أيام.. وأرسل واحدا من الأنصار وآخر من المهاجرين ليترقبوا نبأ النصر بها.. وعندما دخلوا المدينة، كانت رقية بنت الرسول ﷺ قد انتقلت إلى الرفيق الأعلى، وكانت زوجة لعثمان بن عفان.. ورجع النبى إلى المدينة، وكان قد أمر بقتل النضر بن الحارث الذى طالما افترى على النبى الأكاذيب، وقال إن ما جاء به محمد مجرد أساطير، وكذلك قتل عقبة بن معيط الذى كان يسىء الجوار للنبى، فقد كان يلقى الروث عليه، وذات مرة وضع رجله على عنق النبى أثناء صلاته!!

ورجع النبى إلى المدينة، واستقبلته المدينة استقبالا رائعا.. فها هو نصر الله قد تم.. وهذه الحياة وقد لبست ثوبا جديدا.. فهذا يوم لا ينسى من ذاكرة التاريخ..

وقد اختلف المسلمون فى أمر الأسرى.. فأشار عمر بقتلهم، وأشار الصديق بفدائهم..

فقال النبى: مثل أبى بكر كمثل إبراهيم إذ قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦].. وكمثل عيسى إذ قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

ومثل عمر كمثل موسى إذ قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨]. وكمثل نوح إذ قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

ولقد مال النبى إلى رأى الصديق، بعد أن استشار الصحابة، ولكن القرآن جاء مؤيدا رأى ابن الخطاب.

ونزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

وكان المسلمون قد جعلوا فداء الأسير أن يعلم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة، وأن يكون فداء الغنى على قدر ما يمتلك من أموال..

وهكذا بدأت صفحة جديدة من صفحات الإسلام، حيث تحقق نصر المسلمين على مكة، وانعشوا اقتصاديا بما آل إليهم من غنائم وأسرى فى بدر.. وعقب خروج يهود بنى قينقاع..

ومن هنا فقد أصاب عليه الصلاة والسلام كبد الحقيقة وهو يتحدث عما تركته معركة بدر من آثار كبيرة على مجرى الأحداث فقال:

- «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فانى قد غفرت لكم».

* * *